

عبد خالص

المودد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4

WWW.ATTAWHEEL.COM

أسرة المطبعة

العجوة في ألف ليلة وليلة

بقلم

عبد الغني الملاح

بغداد - الجمهورية العراقية

فها هي بغداد الاسطورة الى جانب الصين الاسطورة
وها هي جزر الاندونسيا و (واق الواق) الى جانب
جزر بحر الروم (الابيض المتوسط) . وها هي
مدن الفرنجة (اوربا) الى جانب مدن بلاد فارس
وها هي صور كسرى انوشروان وحكمته الى جانب
صور هارون الرشيد وعظمته وها هم حكماء الهند
الى جانب ابي حنيفة والنظام . وها هم الملوك
والوزراء يقفون الى جانب ملوك الجان وملوك القرد
وها هم الزهاد والفلاسفة الى جانب المجوس
والكفرة .

فاذن يضم كتاب ألف ليلة وليلة تجارب
الشعوب المختلفة والازمان المتعاقبة ، مطعمة بامال
النفس الانسانية والامها المثبثة بالاحلام والاخليل
كما توحى لها او تمنهاها الشعوب المظلومة لتجتاز
بهذه الاخيلة المطرزة بالاسماء الحقيقية في بعض
الاحيان والاحداث الواقعة فعلا عبر التاريخ في احيان
اخرى ، تجتاز النظم السائدة والمسيطرة على
الانسان بصورة عامة وتعمل على فضح حماقات
السلطان وابتناعه عن ادراك مصالح الفرد الذي لا
يقدر ان يصل الى مآربه بالدهانة والتفاني او بكنز
يعثر عليه في باطن الارض او بجني مطيع للظلام
والرموز او بمجوز تقوده الى تحقيق امانيه بالمكر
والسحر والاحتيال .

وكانت الاوضاع السائدة والممارسات المعترف
بها في تلك الفترات الزمنية بصورة عامة قد جعلت
المجتمعات متلاطمة بالتناقضات الفكرية والاجتماعية
والسياسية ، مما حدا بالفنان العبقرى ان يتذرع
بالتجربة ويسبغ عليها قليلا او كثيرا من الاخيلة لكي
ينزج الحسرة والالام من صدور الاكثريه فتشعر
بالراحة النفسية الموقته او تتطور تلك الراحة الى

ليست المهمة التي انيطت بالمجوز في قصص
ألف ليلة وليلة وحكاياتها مهمة مدانة اجتماعيا كما
يتصورها القارئ لأول مرة ، او انها مهمة افحمت
لاسباع روح الدعاية على الحكاية ، او محاولة
لتجسيد التفخ الاجتماعي الذي حل بعد اتساع
الرقعة العربية والاسلامية اثر الفتوحات الكبيرة
في المهود المختلفة التي ابتدأت بعد الهجرة وانتهت
في اواخر العهد العباسي وما طسرا من تزاوج
الحضارات القديمة الفارسية والهندية والرومانية
والصينية مع الحضارة العربية الفائرة بصرمة هائلة
من التطور البدوي الى الطور الحضاري وما تخلل
ذلك من تناقضات فكرية واجتماعية ونفسية ومد
وجزر بين الانشداد بالتراث الموروث المكتسب ، مما
جمل من الامور الطبيعية ان تلك - العجوز -
وهي من ابطال الليالي الرئيسية - مسلكتا متميزا
وتتقمص الزهد تارة والسحر والاحتيال احيانا
وقبادة المشاق الى معشوقاتهم او العاشقات الى
عشاقهن لوجه الله تعالى او من اجل الكسب
والاثراء .

وقبل ان تصدر حكما ساذجا على مهمات
عجائز كتاب ألف ليلة وليلة ، علينا ان نلقي نظرة
سريعة بشيء من التأمل والمحاكمة العقلية على
المصور الطويلة التي تم خلالها جمع هذه الحكايات
في كتاب واحد ، وبصيغة اصح ، على المصور
المتداخلة ببعضها فمن الحكاية الواحدة بالاضافة
الى تلمس المقدرة الفنية والبراعة التي مارسها
المؤلف او الحكواتي في جمع عدة مجتمعات ، مختلفة
النشأة ، ومتباينة الاعراف ، ومتضاربة المكان ،
ومتباعدة الزمان ، واطيرها باطار واحد شفاف
نرى من وراءه كل هذه التناقضات الزمانية والمكانية

تصديق الحكاية ، وشفيح هذا التصديق الجهل العام في ادراك التجربة او مقارنتها فكريا بالموضوعية العلمية ، (فاذا تتبعنا تاريخ الاداب وجدنا ان الخيال يسبق الواقع في وجوده فيها مهما اختلفت الامم) (١) بل يطفئ عليه في كثير من الحالات ، وهذه الحقيقة التاريخية نابعة من المماناة الانسانية المتلاحمة مع ازدواجية الخير والشر التي يتميز بها سلوك الانسان ومن التزاوج الفكري ما بين واقع الحال وبين الطموح نحو المركز والجاه والثروة والعيش الكريم بالنسبة للمفهوم العام . وكثيرا ما يكون هذا التزاوج نتيجة حتمية للتامل بالافكار الموروثة المقدسة او الافكار الذاتية الواقعة تحت مفاهيم ما يسمح به وما لا يسمح به ، مما يضطر الانسان الرافض ان يدل على قدرته في ادراك ما هو مغلوط او ما هو غير عادل بافكار جديدة مختلفة وراء الرمز في الحكاية او الاشارة في الاسطورة وذلك (بوسعه كائنا عضويا تخضع عملياته السلوكية والفكرية لعمليات عضوية تصبح شعورية ، بشكل مجموعها الكلي التصورات الذهنية للذات) (٢) وهذا القول ينطبق على كل المجتمعات غير المتجانسة بيئيا وغير المتجانسة فكريا فيكون للفرد حرية كاملة في الحركة الذهنية المكبوتة طالما لا توجد حواجز تعوق الاخيلة والاحلام بينما الحواجز متوفرة بقوة لاعاقة الطموح الانساني وامكاناته تحت شمار الحرام والحلال وما لم يسمح به التقليد او يسمح . وازاء هذه الحقائق البيئية في مجتمعات العصور الوسيطة وما قبلها نما سلوك انساني معبر بالحكاية وبالرواية انشئت اليه الجامعات البشرية في مرحلة من مراحل تطورها الفكري مزيجا عجيبا من الايمان بالخرافة والايمان بالتححرر الفكري في آن واحد . فها هو الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور لا يضع الحجر الاساس لمدينة بغداد الا بعد ان يحدد له منجمه (توبخت) (٣) ساعة المباشرة . وذلك عن قناعته بتأثير النجوم على اعمال اهل الارض بينما نجد في الفترة الزمنية نفسها الامام جعفر الصادق يؤسس قواعدا للفقه الاسلامي والامام ابو حنيفة يضع (نظرية المعاملات في الفقه الاسلامي) ومالك بن انس يفسف الفقه الاسلامي (٤) . وذلك بادق ما تقتضيه الحاجة الاجتماعية للتعامل ضمن النصوص القرآنية

والاحاديث النبوية في المعاملات اليومية التي يمارسها الانسان ويرتبط بها .

وكنموذج لهذا السلوك الانساني ما تطرقت اليه حكاية (تودد الجارية) اذ تحدثنا عن شاب كان (فريد دهره واحسن اهل زمانه وعصره ذا وجه مليح ولسان فصيح يتهادى تمايلا واعتدالا ويتراعى تدلا واختيالا بخد احمر وجبين ازهر وعذار اخضر) . ورث اموالا طائلة عن ابيه فبدرها في مصاحبة اصدقاء السوء ولم يبق لديه غير جارية اسمها (تودد) فنصحته ان يبيعها الى الخليفة هارون الرشيد بعشرة الاف دينار بشرط امتحانها قبل عقد البيع ، فظهرت براعة فائقة في علوم النحو والشعر والفقه والتفسير واللغة والموسيقى والفلك والفرائض والحساب واساطير الاولين واعمراب القرآن والقراءات السبع والمساحة والرياضة والهندسة والفلسفة والحكمة والمنطق . وناظرت (النظام) شيخ المعتزلة فغلبته وناظرت غيره من العلماء والاطباء والنجمين والمهندسين والفقههاء فانصرفت عليهم جميعا وعمرتهم من ثيابهم تحقيرا لجهلهم وربحت جائزة الخليفة وعادت الى حبيبها الشاب .

وعندما يقرأ الانسان المعاصر هذه الحكاية يلمس فيها روح الشمانة الموجودة لدى الطبقات الشعبية البعيدة عن السلطان ، بالعلماء القريبين من الخلافة كما يلمس العلوم الحقيقية ، ومناقشتها . ولكن الصواب في المناقشة جاء على لسان جارية عاشقة لشاب فقير معدم فاجتهدت عن طريق معرفتها العلمية للعودة الى المحبوب فانحمت بمنطقها وسعة معرفتها العلماء وظهرتهم امام الخليفة بمظهر الجهلة .

وتتكرر في الليالي ظاهرة الجوارى البارعات في المعرفة وهن ينظرن في الشعر والغناء وغيره . وتسير هذه الظاهرة بخط مواز لظاهرة اخرى لا تقل اهمية عنها ، هي ظاهرة المعجزات ودورها الاجتماعي في فترة طويلة كانت فيها زحمة السبايا والرقيق واسواق النخاسة من العوامل المؤثرة في المجتمعات تحت نظام معترف به رسميا يمتد بعمقه التاريخي الى عهد الحضارات الاولى في وادي الرافدين ووادي النيل والافريق والصين . ولكن تبلور هذا النظام في العهد العباسي بصورة خاصة دفع الحرائر الى الانزواء في دورهن بضبط من الرجل ، غير ان الانفعالات العضوية والنفسية لم تخب جذوتها فاحتاجت الى جني مطيع او مارد قدير او انسية متمرسه كائنة للاسرار كي تصل

(١) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٤٦ .

(٢) ل. هول وج . لندي : نظريات الشخصية ص ١١٦ .

(٣) الهمداني : بغداد مدينة السلام . تحقيق د. صالح احمد علي ص ٤٠ .

(٤) د. عمر فروخ : مبقرة الصرب في العلم والفلسفة ص ١٧٢ وما بعدها .

بوساطتها الى متطلبات الحياة المادية والحسية فجاءت حكايات الليالي تصور المرأة في تلك المجتمعات على اختلاف طبقاتها بهذا الاتجاه السلوكي ، وحتى سيدة القصر العباسي الاولى زبيدة زوجة هارون الرشيد لم تسلم من هذا السلوك فنصورتها الحكايات تشار على جاريتها (قوت القاوب) غيرة وحسدا وترسلها مع العبيد لتدفننها حية كما جاء في حكاية (غانم ابن اوب) وقد سبغ الخيال روتقا جذابا على ذلك وصبغه اصباغاً قويا بواقع هذه الحياة (٥) المليئة بالمقد والتناقضات .

ويتميز مثل هذا الواقع المفلز بالخيال . او الخيال المبني على لمحات واقعية بحكاية تلك المعجوز التي قادت شابا عاشقا الى دار قاضي بغداد للاتصال بابنته (الحرة) المخجوبة عن المجتمع وانشطته داخل الجدران ، ولكن (مزين بغداد) انسد تلك الخلوة الغرامية بشرثرته الموهودة . واهمية حكاية مزين بغداد - بنظري - ناتي من كونها الحكاية الوحيدة في حكايات الليالي التي تسجل لنا تاريخا ليكون بمثابة مؤشر ينهبنا الى الفترة الزمنية التي تم فيها تأليف هذه الحكاية بالذات . فقد جاء في وصف المزين عندما اراد ان يخلق رأس الشاب العاشق قبيل ذهابه الى دار القاضي حسبما ارشدته المعجوز على لسان العاشق نفسه ما يأتي : (ومد يده واخرج منديلا وفتحها واذا فيه اصطرلاب وهو سبع صفائح فاخذه ومضى الى وسط الدار ورفع راسه الى شمع الشمس ونظر مليا وقال لي : اعلم انه مضى من يومنا هذا وهو يوم الجمعة ، وهو عاشر صفر سنة ثلاث وستين وسبعمئة من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام وطالعه بمقتضى ما اوجبه علم حساب المربخ سبع درج وستة دقائق (كذا) وانفق انه يدل على ان خلق الشعر جيدا جدا (٦) . فهذا النص بالاضافة الى ما فيه من حضارة الاصطرلاب وحساب النجوم يحدد لنا ان هذه القصة كتبت في او بعد العاشر من شهر صفر سنة ثلاث وستين وسبعمئة للهجرة . كما انه ينبغي باصرار ما يظنه بعض الباحثين ان حكايات الليالي كانت قد اخذت صيغتها النهائية في عهد الدولة الفاطمية التي انتهى عهدها قبل هذا التاريخ . وهناك اكثر من حكاية تشير بشكل او باخر الى فترات تاريخية معلومة . كحكاية (الصعيدي وزوجته الفرنجية) التي تشير الى تحرير (عكا) (٧)

(٥) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٨ .

(٦) الف ليلة وليلة ج ١ ص ٩٠ بولاق .

(٧) حور صلاح الدين الايوبي عكا سنة ٥٨٢ للهجرة راجع ابن الاثير في الكامل ج ٩ ص ١٧٩ .

من ايدي الصليبيين في عهد صلاح الدين الايوبي وحكاية الخياط والاحدب واليهودي والمباشير (النصراني) التي ورد فيها اسم الخليفة (المستنصر بالله) (٨) وبهذه المؤشرات وغيرها نقدر ان نقرر ان مجموعة الليالي جاءت نتيجة للفكر الانساني من خلال عدة قرون اندمجت مع بعضها بازمان مختلفة كان لا يبالغوا فيه شبه بالنسبة للتطلعات العامة التي بقيت دوافع ظهورها لصيقة بالحرمان العام والقلق المستشري من اجل الثروة والجاه والمرض حيث (يوجه الراشدون سلوكهم في ضوء قواعد واضحة) (٩) وذلك يعني ان ظاهرة المعجوز في الليالي تجسيد لمعاناة الجواني والحرائر على حد سواء بكل جوانبها المضطربة مما جعل سلوكها في الليالي امتدادا للذات المحرومة فراححت تخطط لتحقيق امال تعينها على سحق الحرمان بسلوك كان يعتبره المجتمع السائد مقبولا بالاضافة الى خضوعه للوقائع اليومية في ممارسات الحياة .

وتتميز معجوز الف ليلة وليلة بالمقدرة على انتكيف الخلقي . فهي زاهدة تحمل سبعة لذكر الله وابريقا للوضوء وهي ساحرة تركب الزير وتطير به وهي فارسة شجاعة ومقاتلة بارعة وهي انسية خبيثة كمعجوز الروم ذات الدواهي في (حكاية عمر النعمان) وهي جنية طيبة كمعجوز (جزيرة واق) واق (الواق) في حكاية (الحسن البصري) وهي عربية كمعجوز (مزين بغداد) وهي (فرنجية) كمعجوز اديرة بلاد الفرنجة في حكاية علاء الدين ومريم الزنارية . وهذا التحول يمثل تداخل الحضارات باوسع مظاهره من جراء سعة الرقعة الجغرافية للامبراطورية الاسلامية . ومن جهة اخرى ان هذا التداخل يشرح لنا بشكل مباشر او شكل مواسط العوامل الفريدة بالنسبة لهيكل كل حكاية من الحكايات على حدة . وهذه الادوار المختلفة لا يمكن فصلها عن حياة الفرد فهي (استمرار الطبيعة العضوية للسلوك من حيث انه لا يمكن فهم جزء منفرد منه بطريقة عزله عن بقية الشخص الممارس له) كما يقول (هنري موراي) وهذا السلوك مستمد من حاجة قاعدة الهرم الاجتماعي وتشابك اولياته الفكرية والبيئية : فليس من حقنا ونحن نعبر مفاهيم القرن العشرين : ادانة سلوك المعجوز في

(٨) ان كان المقصود بالمستنصر ابن الخليفة الفاطمي بالله فانه قتل الطلائع سنة ٦٢٢ للهجرة وان كان المقصود به المستنصر بالله الذي هرب الى مصر بعد سقوط بغداد على يد هولاكو في عهد سلطان مصر الملك بيبرس فقد بوع في مصر سنة ٦٥٨ للهجرة .

(٩) د. هول . وج . لتندي : نظريات الشخصية ص ٢٦٢ .

وضمها في حكاية الحسن البصري ، وعندما تكون (محتالة) (كدلية) تضطر الى الاستنجاد بابنتها الجميلة (زينب النصابة) لايقاع المسؤولين في الحب فتسلب اموالهم . بينما نجدها عندما تكون زاهدة تقوم بعمل لا اخلاقي فتفرق بين الزوجين (نعم ونعمه) طمعا بجائزة السلطان . وهذه الادوار المختلفة والمتباينة تجرنا جرا الى التفاصيل . فلنختار اربع عجايز لهذا التحليل الموجز .

اولا - عجوز جزيرة واق الواق :

قبل التطرق الى الحكاية لابد من الاجابة على سؤال كثيرا ما شغل فكر الباحثين وهو : هل جزيرة واق الواق خيالية اخترعها الحكواتي ام هي جزيرة حقيقية ؟ وان كانت كذلك فابن موقعها ؟

يرى بعض الباحثين انها جزيرة (سيلان) وبعضهم قال انها جزر اليابان ومنهم من قال انها جزر الفلبين . ولكن شيئا واحدا كان يجب ان ينتبه له الباحثون وهو ان هذه اللفظة (واق الواق) لا تزال لحد الان اسما جغرافيا يقع في ساحل الجنوب الشرقي لآستراليا ويسمى (واغ واغ) او يلفظ بالكاف الفارسية (واك واك) . وقد ثبتت دائرة المسارف البريطانية في اطلسها بهذا اللفظ (Wagga - Wagga) (١٠) كما توجد في جزيرة (سايبس) الاندونيسية هضبة اسمها (وا - وو) (Wa - Wo) (١١) وهناك جزيرة صغيرة قرب جزيرة (غينيا الجديدة) تابعة الى اندونيسيا ايضا اسمها (واك واك) (Waig - Eo) (١٢) فهذه الاسماء الجغرافية المعروفة والتي ثبتت اسمائها حسبما يلفظها السكان المحليون تقودنا الى الفان بل الى الاعتقاد بان البحار العربي وصل هذه الجزر النائية وسمع اسماءها من اهليها (واغ واغ) (واك واك) ونقلها الى عربيته (واق واق) . فتشبهت بها الحكواتي وسبغ عليها فنه الاسطوري وتحدث عنها باعتبارها من الجزر التي يسكنها الجن وذلك في حكاية (حسن الصانع البصري) .

وتتلخص الحكاية بكون حسن البصري غادر البصرة مخدوعا على يد مجوسي طمعا بتعلم صناعة الكيمياء والحصول على المسحوق الذي يحصل المعادن الرخيصة الى ذهب وبعد مغامرة بحرية ممينة اكتشف الخدعة ولكنه عثر قرب (جبل

حكاية تحمل الاسطورة والخيال بنفس كميات الواقع المستمد من طرفة نقلت البداوة بكل اعرافها الى موقع الحضارات المعقدة ، فلم تهضم اعرافها بالسرعة المطلوبة مما زاد المجتمعات تعقيدا وشذوذا ، فنتج من جراء ذلك حكايات ذات بناء خاص يعتمد على الجارية العاشقة والزوجة الخائنة والمعجزة القوادة وماحب الثروة الذي لا يعرف قيمة لثروته والفقر المدوم الذي ينتظر كنوز سليمان بمعجزة والشيخ المجوسي الذي يؤذي المسلمين والتاجر المغامر والعفريت الذي يجوب السماء فيقطع ارجاء الكون بفضة عين ولا يخشى من شيء سوى ذكر الله عندما يكون قريبا من السماء الدنيا .

فكل هذه الصور المعبرة عن تكوين شخصية مجتمعات الف ليلة وليلة تؤكد تأثير المتغيرات العقلية في تكوين الشخصية عبر تلك العصور وتبرير نموها ومراحل ذلك النمو . ولكن الحكاية المقبولة للتعبير عن تلك المتغيرات قفزت من اعماق النفس الانسانية كاتفعال حتمي شانه نقل التراكمات المتفاعلة في اللاشعور الى لسطح . اذ يقول علماء النفس (انه ليس للمفاهيم السائدة جميعا ما يربطها بالشعور الواعي) وانما بعضها وربما اكثرها مربوط بالشعور غير الواعي . فمن الطبيعي اذن ان تكون تلك الحكايات التي ليس لها رباط قوي بالمفاهيم المعلنة متولدة بشكل اخيلة يحدد سيفنها سلوك الفرد دون وعيه . ولا يكون الفرد في هذه الحالة ، فيما اذا كان حكواتيا او مستمعا ميلا الى التصديق فحسب وانما يكون ميلا ايضا الى تبرير ما يحكى او ما يسمع . لانه ينقلب من مدهوش الى توفيقى بين تناقضات الحاجات الكامنة في اعماقه وبين الحاجات الظاهرة وبذلك يضمن انفسه رضا الاعراف السائدة من جهة ورضا الاحلام المرغوب فيها التي ترفض الاعراف السائدة وتضع الاخيلة بدلا عن طريق احلام اليقظة بقدر ما تتسع لذلك اعماق النفس المليئة بالتراكمات العضوية الخاضعة لسلطان الجهاز العصبي الذي كثيرا ما يتخبط في عزل ما هو معقول عن ما هو غير معقول ويعجز عن ذلك بتأثير الطموح للحصول على ما هو مرغوب دون ما هو غير مرغوب حتى لو كان ذلك عن طريق وسيط ساحر او وارد طائر او كنز واقر . او جارية جميلة او شمسطاء مأكرة . ولكي نفهم دور عجوز الليالي فهما موضوعيا علينا ان نتحرى عنها بشيء من التفصيل ونعاملها بالتحليل والتعليل . اذ اننا كثيرا ما نلاحظها عندما تكون قائدة لجيوش الجن والمفاريت تعجز عن ايجاد المسحوق الى معشوقته الا بمساعدة غيرها كما كان

(١٠) راجع اطلس دائرة المعارف البريطانية ص ٢٦١ بالنسبة للمهرست الجغرافي وص ٦٦ بالنسبة للموقع على الخريطة . طبعة ١٩٦٥ .

(١١) المصدر نفسه ص ٦٢ .

(١٢) المصدر نفسه ص ٦٢ .

السحاب (على (جنية جميلة) كانت هي وجنيات اخريات ياتين الى بحيرة بهيئة الطير وينزعن عنهن ريشهن ويلعبن داخل الماء ويسبحن . فتزوجها بعد ان احتال عليها بخطف ريشها المنزوع وعاد بها زوجة حليلة الى بغداد . وسمعت بجمالها السيدة زبيدة فارسلت تستدعيها للنظر اليها . وكان زوجها حسن البصري قد اخفى ثوبها الريش لثلاث ثلثه وتهرب وذلك من شدة حبه لها . فاستفلت الجنية اعجاب السيدة زبيدة بها وطلبت ان تتدخل في احضار الثوب الريشي وتشاهدها وهي ترقص به . وحاولت ام حسن البصري ان تفهم السيدة زبيدة ان ابنها مسافر وزوجته تحاول الهرب فلم تقتنع بل ارسلت واحضرت الثوب الريش بالقوة فلبسته الجارية وطارت هاربة بعد ان قالت لحمايتها (اذا جاء ولدك وطالت عليه ايام الفراق واشتبهى القرب والتلاق وهزته رياح المحبة والاشتياق فليجئني الى جزائر (واق الواق) ، ثم طارت .

ويعود (حسن) فيكتشف هروب زوجته فيغامر في رحلة مليئة بالمتاعب ويجتاز (الجزر) الكثيرة بمساعدة شيوخ الجان والمغاريت حتى يصل الى جزيرة (الواق) . وهنا يبدأ دور المعجوز الكبير في ايصال حسن البصري الى زوجته . وقد ورد اسم (جزيرة الكافور) خلال رحلته . وكان قد اخبره المارد المغرير (ابو الريش) ان جزيرة (واق) لا يسكنها غير النساء فاذا طلع اليها عليه ان يخفي تحت احدى الدكاك الموجودة على الساحل حيث كل دكة تجلس عليها فتاة ثم يتشبث بصاحبة الدكة التي سيختارها في توصيله الى محبوبته . ولكن حظه سيكون ضعيفا لان ساكنات تلك الجزيرة يقتلن كل رجل . فعليه ان يكون حذرا ، فاختر دكة واخفى تحتها .

فلما اقبل الليل جاء خلق كثير من النساء مثل الجراد وسيوفهن مشهورة في ايديهن ثم جلسن على الدكاك للاستراحة فجلست واحدة منهن على الدكة التي تحتها (حسن) فاخذ طرف ثوبها وصار يقبل يديها وقدميها فقالت له (يا هذا قم واقفا ان تراك احداهن فتقتلك) فقال لها (يا سيدتي انا في جبرتك) وحكى لها قصته ثم رآها عجوزا كبيرة وعلم انها قائدة لجيش النساء في هذه الجزيرة واسمها (شواهي ذات الدواهي) . ثم علم بعد ذلك ان زوجته هي بنت ملك الجبان . وعمت المعجوز جهدها لمساعدته ولكنها اخفقت تجاه عناد (نور الهدى) اخت زوجة حسن البصري الكبرى والتي كانت حاكمة على تلك الجزيرة .

وبعد عقبات وتعرض للهلاك يعثر حسن البصري على ولدين يتخاضمان في قسمة (طافية الاخفاء) و (قضيب مسحور) تطيع الجان مالكة اذا ضرب به الارض كان قد خلفهما لهما والدهما . فيحصل حسن البصري على القضيب والطافية وبهما يحصل على زوجته وينقذ المعجوز من غضب (نور الهدى) بعد ان علمت انها كانت السبب في حماية هذا الرجل الذي دخل جزيرة واق الواق التي لا يسكنها غير النساء ، وانها عرضت عليه جميع النساء ليتعرف على زوجته من بينهن غير مراعية للتقاليد العامة في الجزيرة .

هذا هو ملخص الحكاية . فاذا اردنا تطيل رموزها ابقدر ما يتعلق بموضوعنا في هذا البحث) فلا بد لنا من محاولة الاجابة على مثل هذه الاسئلة لفهم طبيعة الانفعالات التي كونت مجتمعات الف ليلة وليلة في هذه الحكاية .

١ - لماذا لم تستجب السيدة زوجة هارون الرشيد الى توسلات ام حسن البصري في عدم تسليم ثوب الريش الى الجنية زوجة ابنها . وقد علمت مسبقا انها اذا لبسته يساعدها على الهرب ؟

٢ - لماذا كان سكان الجزيرة من النساء فقط ، ولماذا كانت زوجة البصري بنت ملك الجان ؟

٣ - لماذا اخفت الجنية المعجوز سر دخول حسن البصري الى الجزيرة المحرمة على الرجال وهي في مركز المسؤولية قائدة لمسكر النساء ؟

٤ - لماذا اختار الحكواتي جزيرة واق الواق النائية جدا لتكون اهم مسرح لاحداث حكايته ؟

اختار القاص او الحكواتي اشهر سيدة في دار الخلافة العباسي لتكون رمزا حقيقيا للتباعد بين واقع السلطان وبين واقع المجتمع العام وتمكن بهذه الحكاية ان يوضح ان السلطان لا تهمة معاناة الناس ومصالحهم بقدر ما تهمة رغبانه . فمن اجل ان تستمتع السيدة الاولى في القصر العباسي برقص الجارية الجنية وتتمتع بفتونها فرقت بين زوجين سعيدين ضاربة بذلك عرض الحائط ما علمته مسبقا من انها بنزوتها الانانية هذه ستحطم قلب انسان من اجل الحياة . واختار القاص جزيرة واق الواق وجعلها مسكنا للنساء فقط للاعتراض على نظام الحريم المحاط بالاساطير الباهرة . فهذه الجزيرة بمثابة تمريض بالنظام الذي خول المترفين والسلطين بملأون قصورهم بالحريم عن طريق الاسر او سوق

التخاسين ويحيطون قصورهم بقليل أو كثير من القدسية . فكان لابد أن تراود مخيلة العامة ضرورة بطل يقتحم هذه القصور تحدياً لهذا النظام فكان (حسن البصري) هو البطل الذي تحمل المتاعب حتى اقتحم جزيرة واق الواق ولكي يسبغ انقاص المتعة اندهنية . اختار اسم جزيرة حقيقية يتحدث عنها البحارة والتجار وجعل سكانها من بنات الجان لما في هذا الاختيار من توفيق بين التزاوج الفكري في تلك العصور بين الاسطورة وبين الواقع . وزيادة في تحدي نظام الحريم جعل القاص بطله القصة بنت ملك الجان نفسه وذلك كاعتراض سلبي يوضح أن المرأة نفسها حتى لو كانت أميرة هي في موقع الاعتراض على فقدان الروح الانسانية في ذلك النظام . ولكن قلة تجربتها كأميرة مسببة مندفعه بمواطنها في الرضا والغضب والاستكانة والهرب كان لابد من ظهور امرأة مجربة بلغت من العمر عتياً لتسهل المهمات الانسانية والحياتية . ومن هذه النظرة جاءت أهمية دور العجوز الجنية (ركابة الزبر) التي وقفت الى جانب عاشقين (انسي وجنية) وخاصمت السلطان وضحت بمركزها المرموق خارجة على قوانين تلك الجزيرة وانظمتها .

ثانياً - عجوز الروم .

وقد جاء ذكرها في حكاية (عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان) التي تدور أحداثها حول الحروب الصليبية بدلالة وجود مثل هذا النص (فما مر ثلاثة شهور حتى تكاملت جيوش الروم ثم اقبلت الافرنج من سائر اطرافها كالفرنسيين والنيما ودبره وجورنه وبندي وجنوز وسائر عساكر بني الاصفر من القسطنطينية) (١٢) . او ورود هذا النص (فاستقبلهم الافرنج بقلوب اقوى من الصخر واصطدمت الرجال بالرجال ووقعت الابطال بالابطال) . او هذا النص (حتى برز له شركان وقلبه من الفيظ ملان وساق جواده حتى دنا الافرنجي في الميدان فكر عليه الافرنجي كالاسد الغضبان) .

(١٢) من الواضح ان المقصود بذلك وصول الجيوش الصليبية من فرنسا والنمسا ودبره والبنديقية وجنوة . ويبدو ان العرب كانوا يفلطون هذه الاسماء حتى وقت متأخر كما نلاحظها قاصي الك ليلة وليلة . الا قد ورد في كتاب (عجائب الانار في التراجم والاختصار) للجبرتي ، من احداث سنة (١٢١٢) للهجرة وهي السنة التي انسحب فيها نابليون بونابارت من حصار احمد الجزائر في عكا كلمة (النيساء) بدل النمسا والفرنساوية بدل فرنسا او الفرنسيين . راجع الجبرتي ج ٢ ص ٢٨٦ .

ويخلل الحكاية وقائع فردية بين المسلمين والافرنج خلال الهدنة وهي كثرة الشبه بالهدنة التي اعلنها صلاح الدين الايوبي مع الجيوش الصليبية كما حدثنا عنها (مؤيد الدولة اسامة بن منقذ) وهو من امراء (شيزر) القلعة الاسلامية في سوريا ومن ضباط صلاح الدين الايوبي (١٣) . ومن خلال هذه الحكاية يبرز دور العجوز بصفتها اما لاحد ملوك الصليبيين وقد تشكرت بزي الصائنات المسلمات وتحدثت في فقه الشافعي وغيره وروت الحديث ، كل ذلك حتى تتقرب من القائد الاسلامي وندس له السم انتقاماً لما فعله بالجيوش النصرانية . واما خلال فترات الهدنة تتغير مهمة العجوز واذا بها تظهر بشكل قوادة تتصيد المشوقين وتقودهم الى عاشقاتهم كما حدث لعزير وعزيرة (١٤) . ولو حققنا في اسباب تنكر عجوز الصليبيين بزي صالحات المسلمين وزاهداتهم لوجدنا ذلك مستمداً من الايمان العام الذي كان يفسى المجتمعات الاسلامية ويصدق بالخوارق والمعجزات على يد الصالحين والزهاد والدرائش والمتصوفة . فيروى لنا ابن الجوزي هذه الرواية قال (شهدت مجلس الشيخ الامام ابي عبدالله محمد البصري ببغداد وحضرته امرأة فقالت يا سيدي انك كنت ممن شهد في صداقي وقد فقدت كتاب المهر واسالك ان تتفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم . فقال ما افعل حتى تاتيني بحلاوة فوقفت المرأة وهي تظن انه يمزح بقوله لا تطيلي . لا امضي معك الا ان تاتيني بالحلاوة . فمضت ثم عادت فاخرجت من جيبها من تحت الازار قرطاساً فيه حلاوة يابسة . فتعجب اصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه فاخذ القرطاس وفتح ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس . ونظره فاذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته فقال (خذي صداقك فهذا هو) (١٥) فاستعظم من حضره ذلك واعتبروه كرامة .

وهناك مئات القصص التي تتناولها انباء الشعب دخلت كتب التراث عن الخوارق والكرامات التي لا يصدقها العامة فحسب بل يصدقها الخاصة بشكل يسهل مهمة عجوز الروم للتجسس على جيوش المسلمين وقتل قائد جيشهم مستغلة المزاج الشخصي في التشبث للبقاء في قمة المجتمع ، والطريف في عجوز الروم ان اسمها ايضاً (شواهي ذات الدواهي) كمعجوز الجن في جزيرة واق الواق .

(١٣) انظر كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ تحقيق فليب حتي سنة ١٩٢٠ .

(١٤) عبدالفتي الاصح . رحلة مير الك ليلة وليلة ص ٢٧ .

(١٥) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٧٠ .

ثالثا - عجوز الحجاج بن يوسف الثقفي

وجاء دورها في حكاية (نعم ونعمة) الزوجين السعيدين ولكن الحجاج سمع بجمال (نعم) فرأى ان يسرقها من زوجها وبقدمها هدية الى الخليفة (عبدالملك بن مروان) باعتبارها جارية اشتراها له . ويحتال لهذا الامر بعجوز قامت بدور العابدات الصالحات المحافظات على الصلوات الخمس ودخلت دار (نعمة) في غيابه وخطفت زوجته وسلمتها الى الحجاج لقاء ثمن فارسلها بدوره الى الخليفة .

ونجد في هذه الحكاية مخيلة الحكواتي قد اختارت قصدا بطلا معروفا بالقسوة لتكون حكايته مقبولة وناجحة . واعطى في ذلك للعجوز دورها المقبول في تصوير الكيد غير الاخلاقي الذي تتردد في سلوكه النسبة الا اذا كانت ذات مصلحة مباشرة كعاشقة او مطلقة او ضرة او جارية مخطوفة . واما اذا كان الغرض هو التقرب من السلطان وخدمته ، فالعجوز هي المرشحة دائما لذلك .

رابعا - دليلة المحتالة

ودورها اكثر تعقيدا من غيرها لانها كانت تحتال لا لمجرد الاحتيال وإنما لكي يصل خبرها الى السلطان فيخصص لها مرتبات وجوائز كما فعل لغيرها من المحتالين فحكايتها تصور بوضوح ان طريق المجد والوجاهة في تلك المجتمعات كان يتمثل بالاحتيال والسرقة وقطع الطرق ، واما المستقيمون في سلوكهم فليس امامهم غير الانكفاء على انفسهم .

ونجد دليلة المحتالة عندما عجزت عن مقاومة (علي الزبيق) استعانت بابنتها الجميلة (زينب النصابة) لتوقعه في حبالها وتسرقت ثيابه . وبالإضافة الى كون هذه الحكاية تشدنا شدا الى فترة زمنية كان فيها للمعيارين والفتوة القول الفصل في حسم الاحداث كما حدث في الصراع على السلطة بين الامين والمامون وما تبع ذلك بعد مقتل المتوكل في تدخل الفتوة في تقرير مصير الحكام . بالإضافة الى ذلك فان الحكاية ذات بعد اجتماعي واقتصادي كحكاية البدوي الذي رضى ان يصلب بدل (دليلة) لقاء اكلة (زلابية بالصل) او الصباغ الذي ذهب تروته الفضيلة لقاء وعد موهوم بالثروة الكبيرة .

من هذا نستدل ان اختيار العجوز لهذه الادوار المتناقضة في الليالي كان مستمدا من كون العجوز

بعد ذاتها لم تكن في وضعها العام الذي لم يخولها (ان تحب ونشقى بالحب) (١٧) . وهذه الادوار لم تخرج عن كون مثل هذا الامر (كان جارفا قويا فكثرت القصص حتى افسد بعضها البعض) (١٨) بمجموع ابعادها وهذا لافساد ناتج عن الخوف من المستقبل والاعتراض على الحاضر . ويقول علماء النفس (١٩) ان استجابة الخوف يمكن ان ترتبط بأدلة او بمثيرات لا تسبب الخوف لدى الفرد الساذج (٢٠) وهذه المثيرات التي وجدناها في عجائز الف ليلة وليلة جزء لا يتجزأ من شعور العموم السذج بيمت في نفوسهم الامل في الثور على كنز او جارية جميلة او اقتحام قصور حريم الاكابر كما في حكاية (الحشاش مع حريم بعض الاكابر) وهذا الاطمئنان هو الجائزة الحقيقية للاستجابة النفسية في السلوك لمركب الذي تتردد مقوماته بين واقع الحال وبين الامل .

وهذا الانفعال النفسي الذي يحدث في اعماق الانسان عندما يسمع قصص الف ليلة وليلة او يقرأها ناتج . قطعاً من (التفاعلات المباشرة التي يوجبها دليل منفرد او موقف لدليل منفرد) (٢١) . وليس بالضرورة ان يكون هذا الدليل منطقياً طالما مستمد من رغبة الفرد لا معرفته ومن نزوته لا عقلانيته . وهذا الاتجاه العام ، اعتبره من اهم دوافع انتشار حكايات الليالي وما شابهها من حكايات الفلكلور التي دائما ترد الاعتبار للانسان العام تجاه الدور المسورة والقصور المخزونة بالكنوز والحريم ، واهمية العجوز في ارياد تلك الدور بدون رقيب واقتحام تلك القصور من غير اعتراض حاجب ، ذات دلالة اجتماعية خاصة . وقد انتبه القدماء الى هذه الدلالة فقالوا في معرض الامثال : (اذا العجوز ارتجبت فارجبها) (٢٢) وارادوا بذلك اذا خوفتك العجوز نفسها فخفها لكي لا تذكر منك ما تكره .

(١٧) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٠٨ .

(١٨) المصدر السابق . ص ٢٠٨ .

(١٩) بالرغم من ان علم النفس اكتشف قواعد متأخرة جدا بالنسبة لاختلاف الف ليلة وليلة فمن الممكن تطبيقها على كل الاحداث والمجتمعات ، التاريخية او الاسطورية او القصصية . وذلك لانها جميعها مترابطة ومستمدة بعضها من بعض .

(٢٠) نظريات الشخصية ص ٥٦١ .

(٢١) المصدر نفسه ص ٥٦٢ .

(٢٢) الميداني : مجمع الامثال ص ٦٨ اكل ٢٤ ط . الثانية .